الأزهار تعرش فوق أصابع صاحبي

محمد عبدالوكيل جازم*

تداخــل هو فــي عتمــات متحركة لا يــدري أين يذهب. عيونه تمســح اللاشيء، وأقدامه تسير في اللامكان... في اللاأمام وفي اللاخلف منذ زمن وهو يبحث عن ذكريــات لدنه كانت بالأمس قريبة منه، ذكريات عبرت في الصبح أو مرت في المساء. ولكن لا فائدة. منذ زمن مجنون، والجبال تبوح بأحزانها وهو لا يدري كيف خسر الكلام، وكيف خسر الشعر، وكيف خسر الكتابة والصراخ والأغاني، والأحضان الدافئة والأوجاع النبيلة خســرها أيضاً... يا الله! حتى الأوجاع النبيلة صارت عصية، الوجع الذي كان بالأمس مثل عينين فاتنتين ومثل غزالتين شاردتين ومثل طفلتين ضاحكتين، ومثل وردتين، هو -أيضاً- صار بعيــداً. والأصدقاء أينهم؟ بــل أين انخابهم؟ لا... لم يموتوا... إنهم يتصارعون في حلبة لا ترى أين، إنهم يعيشــون في المنطقة الفاصلة بين الحلم واللاحلم، بين الضوء والظلام بين الظل والشجرة، بين الصوت والمفردة، بين الذاكرة واللاذاكرة، وفي المناطق المحرمة عادة.

❖ ❖ ❖

توابيت الأيام ترى، ولا شيء يتساقط سوى الأعقاب. لم يتبق من الدموع سوى خطوط سيرها، ولم يتبق من النزيف ســوى الفتات، ولم يتبق من الماء سوى السراب الدائم في المسافات الطويلة.

أي ثورٍ هائج هذا الذي فقأ بقرنيه فرحة الصمت! أي ثعبــان مشــوه هذا الــذي يقف بــين الخطوة وشقيقتها، بين خطوط الأزمان المستهلكة، وخيوط الجغرافيــا المترنحة! أي مارٍّ هذا الذي كلما شــعر بفتوّتــه ذهب للنيل من أمه وأقاربه وأشــقائه! أي كائن هذا الذي يهيج ويزمجر ويتراكض بقدميه من أجل الفراغ!

* قاص وروائي من اليمن.

❖ ❖ ❖

تحول صديقي إلى كائــن جنيني يتكوم في الزوايا ويقتفــي أثر الجراحــات الناغلة. إلــى أين تقوده قدميه؟ والطفولة التي شكلته تنحاز إلى اليوم، إلى الليل الواقف والحاضر المتهاوي. ذهب صديقي إلى المقهى، وهناك طلب كأســاً من الشاي، ثم استقام ذاهباً إلى المرآة الناشبة في جدار الحزن، فوجدها ســانحة، قال لوجهه: "قوتي فــي طفولتي"... نعم، فــي طفولتي التي صوتت ضد النوم، وضد اليقظة وضد الســكون. لماذا لا أعود إلــى طفولتي ومنها أمــارس جنونــي اللذيذ!؟ طفولتــي التي تحركت، دون أن تدري وتدري، في الأمكنة المســكونة بالجن والشياطين. طفولتي التي اكتسحت بيوت الخلوات المهروســة بأشــباحها ثــم نزلت إلى آبــار الرعب وصرخت في وجه المرض، طفولتي التي عاشــتني وعشتها... إنها ترفض شيخوختي المبكرة.
هل حقاً أنا اليوم ابن كفني!؟ كفني الملقب بمنقذي مــن الجنون، كفنــي الأبيض الــذي ينتفخ ليصير أحياناً منطــاداً يتحرك حول العالم ويتحول أحياناً إلى كونه لفائف وأحياناً إلى آهة تترك بقعاً صفراء في واجهات زجاج الدنيا.
الفراغ يدكّ جدران أيامي، يفعل ما لا تفعله القنابل الذرية. لكني أقاومــه بطفولتي، طفولتي أقوى من كل شيء، إنها أقوى من تلك القنبلة.

❖ ❖ ❖

خرجوا جميعاً إلى المســاجد لصــلاة الجمعة ولم يتبق ســوى صديقي "م. ش" والشــارع العام المفرغ من جلده. وجدهــا متعة... كان ينظر في الحقيقة إلى لافتة تحركها الكهرباء. احدودب... بدا ممسكاً بأصابــع رجليه، ومن فمه تخــرج المفردات: طعنة، طعنتــان، ثلاث طعنات، عشــر طعنات، خمســون طعنة، مائة طعنة... داخ صديقي، تبعثر جلده المائي فــي اتجاهات الرصيــف. ثمة دويّ عــالٍ، انفجار كوني، قاومه صديقي، وهو ينظر إلى جسده الممتد كالصليب، الجسد المرسوم على اللوحة الإلكترونية الآن، الجسد الطفولي الذي كأنه في يوم ما.

❖ ❖ ❖

كان صديقي بالأمس قيمة جمالية تعتمل في بطون الأزهار وعيون الأسماك، وتعاريش الأنسجة.
كان صديقي موقد حب، ومجداف شمعدان، ونشوة أســلاف، تمر فوق ســماء الجبــال. كان صديقي شرفة تتطلع إلى جزر المجرات، شجرة حمراء تمد ضفائر جذورها للماء وتضحك إن مستها الأعماق.
كان صديقي طيراً يغرد فوق رفوف القصيدة. كان غيولاً من البنفســج الذاهبة فــي طرقات الله كان طفلاً، كلما ظهر قوس قزح حاول الإمساك به.
كان صديقي فرحــاً مطرزاً بالتبغ، مطرزاً بالجوع، عطره رائحة الخبز، وعيده فرحة لا يراها أحد.

❖ ❖ ❖

قولوا لصاحبــة صاحبي: ما من نجم إلا وأشــعلَ موقده في عين صديقي. ما من بحرٍ إلا واســتلقى في قلــب صديقي، ما مــن زهرٍ إلاّ وعــرَّشَ فوق أصابعه.